مفهوم الخطيب المثقف من خلال محاورة شيشرون
عن الخطيب De Oratore

د. طلعت زهران
كلية الآداب – جامعة الإسكندرية

في محاورته "عن الخطيب" De Oratore، التي كتبها عام ٥٥ ق.م، رسم شيشرون صورة مثلى للخطيب المثقف Doctus Orator ، أو الخطيب الكامل Orator Perfectus، في مجتمع تبوأت الخطابة فيه أعلى منزلة[١].

أحاول في هذه الورقات أن أبين أن شيشرون قد جعل شخصية كراسوس (لوكيوس ليكينوس كراسوس Lucius Licinius Crassus ١٤٠-٩١ ق م)، وهي الشخصية الرئيسية في المحاورة، تجسد هذه الصورة المثلى، بل تعمد، من خلال بناء دقيق للمحاورة، حرص فيه على إحكام الصياغة وإدارة الحوار وتبادل الآراء بين شخصياتها، إلى إقناع القارئ بأن هذه الصورة المثلى تجسده هو شخصيا، أي جعل سياق كلامه يقذف في نفوس قرائه أن كراسوس لا يمثل أحدا سوى شيشرون نفسه.

وبذلك أختلف مع من يرى أن الصورة التي رسمها شيشرون عن كراسوس وأنطونيوس (ماركوس أنطونيوس Marcus Antonius، ١٤٣-٨٧ ق م)، غير دقيقة تاريخيا[٢]، وأن شيشرون قد اصطنعها اصطناعا أدبيا متكلفا، وأن القارئ كان يعرف جيدا أن كلا من أنطونيوس وكراسوس لم يكونا على درجة ذات بال من الثقافة أو العلم؛ وأن هدف شيشرون الأساسي كان السخرية من كل من كراسوس وأنطونيوس؛ برسمه صورة درامية معينة لهما خلال المحاورة ككل[٣].

كما أختلف مع من وافقه في ذلك وزاد أن شيشرون قد حرص على أن تظل هذه السخرية مثارا للحيرة والغموض[٤]. فأرى أن هذا الرأي غير صحيح؛ إذ:

أ) ليس في كلام شيشرون ما يدل دلالة قطعية على مسألة السخرية هذه. بل إن شيشرون حين يؤكد أن الخطيبين السابقين قد حققا شهرتهما المعروفة وتفوقهما، فهو، في الحقيقة، يسوقنا إلى توقع دلالات زائدة لهذا التفوق مثل سعة علمهما وثقافتهما[٥].

ب) وأنه في عام ٥٥، وهو عام تأليف المحاورة، يصعب أن يكون لدى عدد كبير من القراء اتصال مباشر بالخطيبين كراسوس وأنطونيوس؛ لأن ذا الأربعين ربيعا، آنذاك، كان في الخامسة من عمره عند وفاة كراسوس، وفي الثامنة يوم مقتل أنطونيوس.

ج) أنه يصعب أن يقر أكثر قراء شيشرون بهذه السخرية المفترضة ضمنيا.

- **بناء المحاورة**

أجاد شيشرون بناء المحاورة فجاءت بلورة لرؤى أو وجهات نظر المتحاورين، في صورة عمل متكامل يبرز من هو الخطيب المثقف، ومواصفاته، التي تتجسد تماما في كراسوس، ومن باب أولى في شيشرون نفسه[٦].

وجاء البناء في ثلاثة كتب:

يتناول الكتاب الأول: طبيعة الخطابة ومكانتها ومتطلباتها ونظم تعليمها؛ حيث أكد، على لسان كراسوس، أن الخطابة هي أشق الفنون، وأن الخطيب الذي حاز جميع فنون المعرفة بحق، وضرب في كل منها بسهم وافر، فذلك هو الخطيب المثقف Doctus Orator[7]. وانبري كراسوس للكلام عن أهمية الخطابة ودورها الحيوي للمجتمع[٨]، واستفاض في بيان ضرورة سعة معرفة

الخطيب وتنوعها[٩]، بين العلوم المختلفة، لا سيما السياسية والأخلاقية[١٠]، ثم بيّن أسلوب إعداد الخطيب، ومتطلبات ذلك[١١]. وبينما استفاض كراسوس في بيان أركان الخطابة وشروطها، والتمارين الضرورية اللازمة للخطيب المثقف، وضرورة إحسان استخدام الإيماء والإشارات[١٢]، أسهب أنطونيوس، معترضا، في بيان أن الخطابة لا تتطلب سعة معرفة، ويكفي فقط القدرة على الإقناع[١٣]، والتأثير على العواطف[١٤]، دون حاجة لمعرفة الفلسفة أو التعمق في دراسة القانون[١٥].

* ويتناول الكتاب الثاني: عرض أنطونيوس لآرائه أن الخطابة لا ينبغي أن تنزل إلى مستوى علم من العلوم؛ فتصير مجرد قواعد لملاحظات وتجارب[١٦]، وينتقد بعض القواعد البلاغية ويحتفي بأثر الموهبة الطبيعية ودوام الممارسة[١٧]. ثم يتبادل مع كاتولوس[١٨] الكلام: عن مقارنات يونانية ورومانية، وتأثير فلسفة أرسطو، والرواقية[١٩]. ثم يتكلم عن أهمية استثارة المشاعر والعواطف[٢٠]. ثم يتحدث قيصر سترابون عن أهمية عنصر الذكاء وإدخال المرح وروح الدعابة[٢١]. ثم يتكلم أنطونيوس عن ترتيب الخطبة، وأنواع الخطب وأهمية قوة الذاكرة[٢٢].

* ويتناول الكتاب الثالث عناصر الخطبة: حيث حرص شيشرون على أن ينفرد كراسوس بأغلب الكلام والحوار الختامي؛ مؤكدا ضرورة تلازم الأسلوب الشيق والموضوع وعذوبة الإلقاء[٢٣]، وتلازم الفصاحة والفلسفة[٢٤]، وأهمية الأسلوب المزخرف: من اختيار الكلمات، وترتيب سياقها وإيقاعها[٢٥]. ثم العناية بإجادة الإلقاء[٢٦]. كما أكد أن على الخطيب أن يكون محيطاً بالبلاغة؛ يحسن انتقاء كلماته وعباراته، ويعني بجاذبية أدلته وقوة إقناعها. ولا ينسى لحظة واحدة انه شخصية عامه، يجب أن تكون مفعمة بالحيوية، يعرف هدفه جيداً، صادقا في حديثه، وأفعاله، ومثلا أعلى يُحتذى، وأسوة لأجيال الشباب التالية.

ومن ثم لم يكن غريبا أن يثبت، في ختام الكتاب الثالث، رجحان أراء كراسوس ووجهات نظره عن الخطيب المثقف ثقافة عالية متنوعة.

***الصورة المثلى للخطيب المثقف**

أركان الخطبة المتكاملة وشروطها

بيّن شيشرون، من خلال المحاورة ككل، ضرورة توافر سبعة أركان أساسية في الخطبة؛ يأتي على رأسها، بل له الأولوية القصوى، إعداد الخطبة، ثم المدخل، أو الافتتاح، ثم عرض النقاط الحيوية لموضوع خطبته، ثم الفكرة الأساسية للموضوع، ثم بناء أدلته الداعمة لموضوعه، ثم تفنيد أدلة الخصوم والرد عليها بالدليل، ثم خلاصة استنتاجات الأدلة، وختام ذلك بإلهاب عواطف الجمهور[٢٧].

* وبين ضرورة توافر خمسة شروط في الخطبة المتميزة، هي: الابتكار، والترتيب، والأسلوب، والذاكرة، فالإلقاء. مؤكدا أن الذاكرة تعد الوسيلة الأساسية الوحيدة لحفظ العلم وتناقل العلوم على مر العصور:

" ماذا أقول عن الذاكرة خزانة جميع العلوم؟ ....(فهي) حارستها"

Quid dicam de thesauro rerum omnium, memoria? custos[28]

فقد كان الحفظ هو الطريقة الوحيدة لذلك، كما ذكر أرسطو[٢٩].

*** وأكد شيشرون أهمية كل من الفلسفة والبلاغة؛ فهما متلازمان لا غنى لأحدهما عن الأخر. والعظيم هو من امتلك ناصيتهما معا. ولكن تتفوق البلاغة على الفلسفة، وأن الفلسفة، وإن كانت من أعظم ألوان المعرفة، لكن البلاغة والقدرة على الإقناع الخطابي هما اللذان جعلا لها فعاليتها[٣٠].**

وقد جسد بطلا المحاورة الرئيسيان وجهة نظره ومفهومه البلاغي تجسيدا تاما[٣١]؛ إذ زعم أنطونيوس أن البلاغة يمكن تعلمها، بينما رأى كراسوس أن البلاغة نتاج موهبة فطرية مع دراسة دقيقة لها. وأكد أهمية استخدام إشارات

اليد وحركاتها ونبرات الصوت في زيادة تأثير الخطابة. وبيّن أن كل إنسان قد وُهب نظرات معينة ونغمة صوت خاصة به، وأنه لابد أن يستغل تعبيرات قسمات وجهه مع نبرات صوته؛ لتكون معاً أشبه بأوتار قيثارة، تعزف جميعها معزوفة واحدة[٣٢].

جدير بالذكر هنا أن شيشرون قد تأثر في تحسين إلقائه بدارسة حركات وتعبيرات الممثلين المشهورين روسكيوس Roscius وأيسوب Aesopus. وعكف على دراسة تفصيلية لفنون الخطابة، وضم إليها خبرته وتمرسه بها زمنا طويلا[٣٣].

وجزم شيشرون بأن رجل الدولة يجب أن يكون واسع الإطلاع محيطا بجميع العلوم الرئيسية. ولما كان هذا مستحيلا عمليا، فلا مناص من ضرورة الدعوة للتعليم الحر كأفضل طريقة لتوسيع المدارك الثقافية.

* إدارة الحوار ورسم الشخصيات

استخدم شيشرون دهاءه وذكاءه الحاد، لدعم رجحان آراء كراسوس. ففي مستهل مقدمة الكتاب الثاني يؤكد أن كلا من أنطونيوس وكراسوس أكثر علما وثقافة مما شاع عنهما بين الناس في زمنهما. وكان هذا العلم الغزير، والثقافة الواسعة، أكبر سبب لشهرتهما في مضمار الخطابة[٣٤]. وقد كرر هذا المعنى مرات كثيرة[٣٥].

رسم شخصية أنطونيوس:

تتجلى مهارة شيشرون، أوضح ما تكون، في محاولته الجادة البارعة إخفاء العيوب وجوانب الخلل في تباين الشخصية؛ ففي سياق الكتاب الأول، على سبيل المثال، يقر كراسوس نفسه أن بعض الخطباء (مثل أنطونيوس تاريخيا) قد بلغوا مستوى لا يُنكر من التألق الخطابي، على رغم جهلهم بموضوعات محددة. إن شيشرون يحاول أن يعالج هذه المشكلة من زاوية واحدة، من خلال رسم أنطونيوس، على أنه حالة استثنائية:

"إذ أن بمقدوره أن يبدو خطيبا بارزا على الرغم من جهله بالقانون المدنى. أما غيره من الخطباء العاديين فلا يستطيعون ذلك":

Antoni incredibilis quaedam et prope singularis et divina vis ingeni videtur, etiam si hac scientia iuris nudata sit, posse se facile ceteris[36]

إضافة إلى ذلك إن كراسوس (وشيشرون طبعا) يقرر أن الخطيب المثقف أو الكامل يهدف إلى شيء أسمى من مستوى ما حققه أنطونيوس[٣٧]. وعلى الرغم من أن شيشرون يدرك جيدا أن كثيرا من قرائه راضون تماما عن مستوى أنطونيوس من المهارة والتميز، لكنه يريد تأكيد أهمية سعة الثقافة وشمولها. ومن ثم حرص على أن يقنع قارئيه بأن أنطونيوس، إنما يتظاهر بعدم الثقافة dissimulatio eruditionis، على خلاف الحقيقة، التي هي سعة علمه وثقافته. وما تظاهره بعدم العلم والثقافة إلا شيء مصطنع.

ويظهر هذا جليا من السياق الدرامي للكتاب الثاني؛ فإنه يورد على ألسنة بعض الشخصيات ملاحظات تتسق تماما مع المقدمة وتدعم تأكيده؛ فهذا قيصر سترابون يبدى دهشته بل مفاجأته من أن أنطونيوس يبدو خطيبا عليما في كلامه عن المؤرخين الإغريق:

"قال قيصر: أين هؤلاء الذين ينكرون علم أنطونيوس (بثقافة) الإغريق؟ لقد ذكر كما هائلا من المؤرخين! وتكلم عن (كل) واحد منهم بعلم غزير ودقة تامة"

inquit .... Caesar; "ubi sunt, qui Antonium Graece negant scire? Quot historicos nominavit! Quam scienter, quam proprie de uno quoque dixit"![٣٨]

وردا على كلام أنطونيوس عن الخطباء العظام جاء تعليق كاتولوس: " إنني أرى أنك قد نذرت نفسك لدراسة الثقافة الإغريقية أكثر مما كنا نظن"

"plus te operae Graecis dedisse rebus video quam putaramu"[٣٩]

وردود أنطونيوس هنا تؤكد الملاحظة الواردة في المقدمة أنه يظهر نفسه في ثوب الجاهل بالعلوم الأخرى؛ لكي يؤكد أن تركيزه الأساسي هو التميز في الخطابة.

"قال: ستسمع مني الحق يا كاتولوس: إنني اعتقدت دوما أنني سأكون خطيبا أكثر تميزا وملاءمة لهذا الشعب"

"verum" inquit "ex me audies, Catule: semper ego existimavi iucundiorem et probabiliorem huic populo oratorem fore[40]

ولذا فإن أنطونيوس يقر بأنه لم يكن فقيها في علم اللغة(philologus) يوما من حياته. ويدعى لنفسه مجرد معرفة سطحية بموضوعات متنوعة وينسب لنفسه علما بالفلسفة يقتصر على بعض الأمثال والحكم واللطائف[41]. أضف إلى ذلك أنه يصر، في الكتاب الثاني، على أن لديه ميلا تلقائيا وحبا فطريا لدراسة القانون المدني، وهو ما أظهره في دفاعه في الكتاب الأول[42]. بينما صوره شيشرون في المقدمة مؤكدا أن لديه علما doctrina لا يستهان به، وأنه يجتهد بشدة ليخفي ذلك، وأنه يتظاهر بالعزوف عن الدراسات الثقافية.

إن شيشرون يريد أن يقول إن أنطونيوس لا يريد إخفاء مهارته dissimulatio artificii فحسب، وإنما إخفاء ثقافته dissimulatio eruditionis كذلك.

زد على ذلك أن رسمه لشخصية أنطونيوس في هذه الصورة يستمر إلى نهاية الكتاب. وهنا يلاحظ سولبيكيوس (بوبليوس سولبيكيوس روفوس Pupilius Sulpicius Rufus (١٢١-٨٨ ق م)، بالمثل، أن نظرته إلى أنطونيوس على أنه جاهل عديم الثقافة قد تغيرت تماما:

" لقد تخلصت من خطأ جسيم...؛ ذلك أنني كنت أعتقد أنك لم تحصل هذه العلوم، التي أراك الآن على علم شامل بها...."

"magno sum levatus errore ...; nec enim te ista attigisse arbitrabar, quae diligentissime cognosse .....video"[43]

إن شيشرون يرمى إلى جذب الانتباه إلى أن أنطونيوس يظهر سعة علم ولا يخفيها؛ فيصور أنطونيوس تجسيدا حيا يثبت أن وراء التميز البارز في الخطابة ثقافة واسعة، تتجلى مع تطور سياق المحاورة أكثر فأكثر بما يدعم موهبته. ولتأكيد هذه الحقيقة، فإن شيشرون يجعل سولبيكيوس قرب نهاية هذا الكتاب يضمّن الـ doctrina في قائمته للمؤهلات اللازمة لتطلب البلاغة.

" لقد قررت أنه لا أحد يمكن أن يُمتدح بأنه يتميز بالحكمة والبلاغة ما لم يتمرس دوما بعميق الدراسة والاجتهاد والعلم"

semper statui neminem sapientiae laudem et eloquentiae sine summo studio et labore et doctrina consequi posse.[44]

إن إضافة الـ doctrina هنا إلى مؤهلي الدراسة studium والاجتهاد labor تثير نقطة الخلاف بين شيشرون وكوينتوس. وهى النقطة البارزة في المقدمة الأولى: وبينما يؤكد كوينتوس توليوس شيشرون Q. Tullius Cicero، شقيق شيشرون الأصغر، أن الموهبة ingenium والممارسة exercitatio هما كل ما يحتاجه خطيب، فإن شيشرون يدافع بقوة عن أهمية الـ doctrina[45].

إضافة إلى ذلك فإن شيشرون يكرر النقطة في المقدمة الثانية:

" لا يمكن لأحد أن يتميز في البلاغة قط دون علم الكلام، كما لا يمكن أن تزدهر حكمته او تتميز دون ذلك"

neminem eloquentia non modo sine dicendi doctrina, sed ne sine omni quidem sapientia florere umquam et praestare potuisse.[46]

ومن ثم فإن شيشرون يقدم صورة لأنطونيوس تعزز تأكيده أن الخطباء المتميزين ثقافتهم واسعة وإن جهلوا بعض العلوم.

رسم شخصية كراسوس:

يتحول اهتمام شيشرون، في الكتاب الثالث، من أنطونيوس إلى كراسوس. ويظل هدفه البلاغي، ببساطة شديدة، هو تأكيد أحقية كراسوس، من خلال خطبه، بوصف الخطيب المثقف. وهو يحقق هدفه هذا بأساليب متنوعة، بعضها واضح، وبعضها أقل وضوحا. ولكنها كلها تثبت الصياغة الذكية الواعية للمحاورة. وقد حرص شيشرون على أن يجذب اهتمام القارئ إلى شخصية كراسوس قبل أن يهم كراسوس بالكلام، فسبق ذلك بتقديم يعظم تأثير الشخصية التاريخية حين يكون صاحبها خطيبا ورجل دولة. وهكذا يسوق القاريء إلى إعطاء أهمية خاصة للحوار التالي.

"ذلك أنه (يمثل) تلك العبقرية الجديرة بالخلود"

Nam illud immortalitate dignum ingenium[47]

"كان رجلا عظيما في صوته وخطابته"

fuit divini hominis vox et oratio[48]

* ولعل أبسط أساليبه، كذلك، هو أنه خص كراسوس بالتعليق الختامي لحوار اليوم الأخير. لقد أدرك شيشرون جيدا ميزة التعليق الختامي في الحوار، وكان على وعى بأن القارئ سوف يتذكر، بأقصى درجة من الوضوح، ما يساق من الآراء في ختام المحاورة[٤٩].

ما كان لهذا الأساليب أن تكتسب دلالاتها الخاصة إذا قصر شيشرون تناول شخصية كراسوس على الكتاب الثالث، حيث ركز، في جزء منه، على مناقشة كل من طريقة الإلقاء (elocutio) والأداء (actio) ولكنه استفاد بمهارة بما أرساه هو فى الكتاب الأول، ثم فى الكتاب الثاني كله، من آراء و تصورات خاصة عن الخطيب المثقف. وصارت هذه التصورات حقائق أساسية، لم يعد يعارضها أحد.

– لقد أرسى حقائق ثلاثة لها أهميتها الخاصة:

١- التنافس بين الخطيب والفيلسوف

٢- التناقض بين الحقيقة النموذجية ونظرياتها العلمية

٣- الدور الذي يجب أن تؤديه النظم السائدة مثل القانون المدنى والتاريخ والفلسفة فى تثقيف الخطيب. وهذه الموضوعات الثلاثة تعود إلى التجسد فى حوار كراسوس خلال استطرادين تم إدخالها بمهارة إلى معالجته لطريقة الإلقاء (elocutio).

إن ردود فعل كراسوس عن الخطيب المثقف تسمح بانتقال أنيق إلى موضوعات أوسع سبق التعرض لها فى الكتاب الأول، يقول: إن الخطابة ليست مجرد حشد لقواعد بلاغية[٥٠]، بل يمتد تأثيرها إلى مجالات أخرى لا سيما الفلسفة[٥١] .

وهكذا لم يعد أحد يعترض على الموضوعات التي أثارت جدالا حادا فى الكتاب الأول من جانب أنطونيوس. بل يقر كاتولوس أن تميز كراسوس في الخطابة وتألقه البارز إنما يرجع بحق إلى معرفته بالفلسفة:

"قال كاتولوس: أقسم يا كراسوس أنك لا تبدو لي أعظم خطيب فحسب، بل أكثر الناس حكمة، وإنني أدرك الآن أنك ملكت ناصية أعظم الأمور، التي قادت إلى (التعمق في) الفلسفة"

Tum Catulus "haudquaquam hercule" inquit "Crasse, ... ut mihi non solum orator summus, sed etiam sapientissimus homo viderere; nunc intellego illa te semper etiam potiora duxisse, quae ad sapientiam spectarent[٥٢]

إن الهدف من هذه الملاحظة، شأن مثيلاتها في الكتاب الثاني، فيما يتعلق بثقافة كراسوس هو تعزيز نموذج شيشرون للخطيب المثقف في سياق درامي.

وفى الوقت نفسه، يدعى كاتولوس أنه لا يفهم جيدا كيف أمكن لكراسوس أن يتعمق إلى هذا الحد فى علم الفلسفة؛ فإن عظماء الناس تستغرقهم السياسة

ومتطلباتها منذ مطلع شبابهم؛ فلا يجدون وقتا كافيا لتحصيل التدريب الفلسفي اللازم[٥٣].

ولكن كراسوس يبرر هذا بأن أغلب العلوم، خلافا لما يسود عند كثير من الناس، يمكن تحصيلها والتمكن من ناصيتها بسرعة، أو على الأقل يمكن تعلمها بصورة جيدة تفي بحاجات الخطيب.

ولا ريب أن هذا يمثل وجهة نظر شيشرون نفسه؛ إذ يُظهر نفسه رجلا يتحمل تبعات شغفه بالفنون المختلفة.

إن شيشرون يسوق القارئ لإدراك هدفه البلاغي الأساسي، الذي لا يقتصر على إظهار مهارات وقدرات تعليمية لشخص ما، وإنما يرمي إلى حل الإشكال بين ما هو عملي وما هو نموذجي، وهو الإشكال الذي يستتر خلف أكثر عباراته في الكتاب الأول. ففي حوار اليوم الأول ظهر الرفض لأهداف كراسوس السامية: تعليمية وخطابية؛ بحجة أنها غير عملية[٥٤]. وعلى الرغم من إقرار انطونيوس بمزايا التخطيط التدريبي الطموح لكراسوس، فإنه يعترض قائلا إن هذا أمر، ببساطة، لا يناسب الخطيب الروماني الغارق في مشاغله. وهو يتحمس بشدة مبديا هذا الاعتراض في خطبته الأخيرة في الكتاب، عندما يدعى أن الخطيب المجتهد المجد لا يحتاج إلى أكثر من مجرد درجة من المعرفة تفي بأغراضه العملية:

"هل يمكننا أن نكتفي بمعرفة عامة؟ ومن ثم، لماذا لا نفعل هذا نفسه في القانون المدني، لا سيما عندما نتجادل في القضايا والمفاوضات والسوق العامة، ويغدو بمقدورنا أن نتعلم ما يكفي؛ حتى لا نبدو غرباء أو دخلاء في وطننا؟"

An hac communi intellegentia contenti esse possumus? Cur ergo non eidem in iure civili, praesertim cum in causis et in negotiis et in foro conteramur, satis instructi esse possumus ad hoc dumtaxat, ne in nostra patria peregrini atque advenae esse videamur?[55]

ثم يحاول شيشرون، على لسان كراسوس، في الكتاب الثالث، أن يؤكد أن بإمكان عضو السناتو، على الرغم من أعبائه ومسئولياته في الحياة العامة، أن يكتسب تلك الأدوات، ويمتلك ناصيتها. فإذا عرضت له حاجة عملية لمعرفة موضوع ما، فإنه يمكنه تحصيل معرفته بسهولة، دون الحاجة إلى وقت طويل ليمتلك فيه ناصيته، فلا حاجة لشخص ما أن يقضى عمره كله في دراسة موضوع من الموضوعات. ويرى أنه لا يشك أن دارسة أي موضوع يمكن تطويل أمدها إلى ما لا نهاية لمن شاء:

"ومن ثم فلا تندهش لدى مرأى شيوخ كبار منقطعين لدراستهم؛ لأنهم ببساطة أما بدأوها متأخرين في شيخوختهم وأطالوا أمدها طواعية، أو أنهم بطيئو الاستيعاب والتعلم".

Qua re nihil est quod quisquam magnitudinem artium ex eo, quod senes discunt, pertimescat, namque aut senes ad eas accesserunt aut usque ad senectutem in studiis detinentur aut sunt tardissimi"[٥٦]

ثم يوجز رأيه ببساطه شديدة قائلا:

" ليس بمقدور أحد ما أن يتعلم شيئا البتة ما لم يكن بمقدروه أن يتعلمه بسرعة"

nisi quod quisque cito potuerit, numquam omnino possit perdiscere [57]

ومن ثم يصبح القارئ قاب قوسين أو أدنى من الاقتناع بمفهوم شيشرون عن الخطيب المثقف. إن طريقة تناول شيشرون وإسهامها فى صياغة الهدف المطلوب واضحة، وبقدر ما جاءت آراء كراسوس في الكتاب الأول معقولة، رغم إسهابه في سردها، جاءت اعتراضات انطونيوس بعيدة وشاذة. ويحاول كراسوس، الآن معالجة الموضوع بصورة مباشرة فيدحض هذه الآراء دحضا تاما.

ويصير الفارق الواضح بين الرأيين أن أنطونيوس يرى أنه يكفى الإلمام بقدر سطحي من أي موضوع. أما كراسوس فيرى أن ما يحتاجه الخطيب

يمكنه أن يتعلمه بسرعة، خلال تركيزه فيه. ولذا فهو يدعو إلى تعامل أكثر جدية وتنظيما مع الأدوات المختلفة، وهو أمر يرضي القارئ الروماني؛ بصفته وضعا واضحا عمليا، لا زيف فيه ولا تدليس، يتألق فيه الخطيب المثقف[٥٨]. ويرى كراسوس كذلك أن الدارس المتأني المبطئ لن يكون بمقدروه قط أن يحيط علما كاملا بالموضوع الذي يدرسه، ويضرب أمثله على ذلك. ويبذل شيشرون قصارى جهده ليقدم صياغة تؤثر في رؤية القارئ للموضوع. ويقسم كاتولوس، مؤيدا هذه التعليقات بحماسة (Hercule adsentior[59]).

ويعتني شيشرون بصياغة تعليقات كل من جايوس أوريليوس كوتّا Gaius Aurelius Cotta. وقيصر سترابون؛ لكي تصب في تأييد رؤية كراسوس، الذي يواصل كلامه بالعودة ظاهريا إلى أجزاء الخطبة التي لا تزال محل النقاش، فيبدأ ببعض الملاحظات العامة قبل أن يعرج على النقاط الرئيسية النافعة، بوجه خاص؛ ليزين موضوعه[٦٠].

ومن ثم، يستخدم هذا الموضوع نقطة انطلاق ليصل بمهارة، مرة أخرى، إلى التركيز على التنافس بين ما هو بلاغي وما هو فلسفي، ويستفيض في بيان الإسهام اليوناني في هذين المجالين، ثم يحاول أن يستخلص وضعا حقيقيا للخطابة مستقلا عن الفلسفة، مؤكدا أن الأخيرة قد عرضت إلى نواح كثيرة هي من صميم مجال الخطباء[٦١].

إن أول خطوة له هي عمل مزج بين المجالين[٦٢]، ثم يتقدم خطوة أخرى ليقرر تفوق الخطيب لا سيما المثقف.

" عندما نتساءل ماذا يميز واحدا عن الجميع، يجب أن يُسلم تاج التفوق للخطيب المثقف"

sin quaerimus quid unum excellat ex omnibus, docto oratori palma danda est [63]

فهذا كوتّا يقرر أن كراسوس قد نجح فى إقناعه بأهمية الفلسفة للخطيب بوجه عام، ثم بتحوله إلى الأكاديمية بوجه خاص.

me quidem in Academiam totum compulisti [64]

وأسلوب التناول هنا، مع الصياغة الماهرة يسوقان القارئ إلي أن يتبنى آراء كراسوس. بعد اقتناعه بها، ويصير متأهبا لخوض غمار هذه الدراسات الفلسفية بشرط عدم إطالة الأمد فى ذلك. وهذا يضيف تعضيداً لرؤية كراسوس بوجود تنافس بين العملي والمثالي. وهذا ما يؤيده قيصر سترابون ويوافق عليه كذلك [65].

وهكذا نجح شيشرون فى إظهار اتفاق ثلاثة من أطراف المحاورة على رؤية واحدة، وبذلك يسوق القارئ سوقا لكي يقتنع بها. وعند هذه النقطة التي تبرز كلا من كراسوس وشيشرون على أنهما مثال الخطيب المثقف، ينبري سولبيكيوس معترضا بشدة، رافضا تأييد كراسوس في تصويره للخطيب الفيلسوف:

" هنا قال سولبيكيوس: إنني، بالفعل يا كراسوس لا أفضل أرسطو ولا كارنيادس ولا أحدا من الفلاسفة. بل لك أن تعتبرني قد يئست من هذه النماذج، وأهملتها واحتقرتها"

Hic Sulpicius "ego vero," inquit "Crasse, neque Aristotelem istum neque Carneadem nec philosophorum quemquam desidero. Vel me licet existimes desperare ista posse perdiscere vel, id quod facio, contemnere [66]

وعلى الرغم من أن ظاهر السياق يبدو، للوهلة الأولى، ضد الهدف الذي يرمى إليه شيشرون، إلا أنه في الواقع يقدم إسهاما إيجابيا له. فحين يغرد سولبيكيوس وحده خارج السياق معارضا وحيدا، فإنه يساعد على تأييد رأى الأغلبية. وبذلك يخدع شيشرون جمهور قارئيه بمهارة فائقة. إنه، من خلال لفت الانتباه إلى رفض سولبيكيوس للفلسفة، يقدم اعتراضا ضمنيا ضد الخطيب الذي يتجنب الاهتمام بالدراسات الفلسفية: فمثله كمثل رجل يمكنه أن

يحقق نبوغا في الخطابة، ولكنه سيظل حتما ضالا تائها دائما، طالما أنه يسير دون مبادئ صحيحة في الحياة[٦٧].

إن تفوق النموذج الذي يمثله كراسوس يكتمل في النهاية، فشيشرون يقطع الرتابة التي ظل عليها أنطونيوس على مدى ١٣٠ فقرة من الكتاب، ومن ثم يركز الانتباه على تضاؤل دوره فى الكتاب الثالث، ثم يجعله يختفي من المشهد، فيتسنى لكراسوس أن يتصدر الحديث ويتحكم في الحدث. وبالفعل، ظهر في الكتاب الثالث ككل أن تبادل الحديث بين الشخصيات قد قل بشكل ملحوظ، واستأثر كراسوس بمعظم الحديث المتواصل، وصارت نبرات حديثه تحمل سمة الجزم والسيطرة. فهو يبدأ، على سبيل المثال، فيستأثر بـــ ٢٧ فقرة دون توقف، وتخلل ذلك ملاحظات مناسبة من الجمهور، بينما حدث مع انطونيوس عكس ذلك منذ بداية كلامه؛ إذ قوطع مرارا بتعليقات من كاتولوس.

وكذلك الحال في الحوار الثاني لكراسوس، فقد جاء أطول من سابقة (نحو ٣٠ فقرة). وهذا لاشك يؤثر على نظرة القارئ إلى كراسوس، الذي ظل جمهوره ينصتون إليه في توقير واحترام. أما أنطونيوس فقد راح كاتولوس وغيره يقاطعونه أثناء كلامه بمداخلاتهم.

- وأهم من ذلك أن التعليق الذي ساقه أنطونيوس يشعر بانتهاء دوره في الحوار، ويجعله في الختام يؤيد رأى كراسوس. فإن تعليقه يرجع إلى الملاحظة التي أوردها في الكتاب الأول، لدى مشاركته في الحوار لأول مرة. لقد زعم أنه لم يقابل قط خطيبا جديرا بأن يقال عنه إنه مفوه فصيح eloquens[68]. أما هنا فيصرح بأن كراسوس قد أثبت أنه ذلك الرجل[٦٩]. وهكذا رفع كراسوس إلى منزلة من التفوق لا تُبارى.

خاتمة

من دراسة الكتابين الثاني والثالث يتضح أن المحاورة قد صيغت بدقة وعناية فائقتين وأن القارئ يظل يساق ليقتنع برأي شيشرون ونظرته. أما الكتاب الأول فقد اختلف بناؤه عنهما، حيث مهد فيه شيشرون المجال لكل من كراسوس وأنطونيوس وسكايفولا؛ لكي يقدموا حوارا في موضوعات متنوعة، بحماسة ملحوظة. وبالفعل تتفتح بين الأطراف نقاط خلاف لها دلالتها. واختتم أنطونيوس حوار اليوم بخطبة مسترسلة تفند معظم آراء كراسوس. بينما استرسل الحوار في الكتابين الثاني والثالث في اتجاه مضاد في سلاسة أكثر، ناقضة ملاحظات أنطونيوس وآراءه.

إن شيشرون قد اصطنع حيلة انتقالية، غاية في البراعة؛ إذ جعل أنطونيوس يقول، في بداية الكتاب الثاني، إن آراءه التي أبداها في اليوم السابق كانت فقط لمجرد الحوار أو الجدال، وإنه سوف يوجز الآن ما يؤمن به بالفعل[٧٠].

ومن ثم جاء التناسق واضحا في الكتابين الأخيرين ليزيل تأثير تضارب الآراء الرافضة، ويسمح لدروسهما أن تبدو واضحة جلية. فجاء التناول الظاهري للكتاب الأول عرضا لآراء يرمي شيشرون إلى إثارتها في الحوار، وتستحث القارئ على أن يرى أن ما ساقه شيشرون على لسان كراسوس، في الكتاب الأول، هو الأكثر تأثيرا وإقناعا. ومن ثم صار واضحا أن خطيبا، في وزن شيشرون وخبرته الهائلة، لا يجوز لجمهور الرومان غض الطرف عنه بسهولة، بل مهما اعتزل العمل السياسي، فإنه ينبغي أن يظل الأديب والخطيب الأشهر والأبرز والأجدربالتقدير الفائق.

إنه منذ سنواته الأولى، تميز بكونه خطيبا بارزا وفيلسوفا؛ ومن ثم فقد أمكنه الآن أن يقدم إسهاما بارزا ملموسا[٧١]، من خلال تصويره المتميز للـ" الخطيب المثقف"، وإن بدا ذلك دعاية شخصية له. إنه يبدو شخصيا،

وبصورة واضحة، تجسيدا بالغ الحيوية لنموذج هذا الخطيب. وهكذا تأتى المحاورة نوعا من الدعاية الواضحة له[٧٢].

إن اقتران صورة شيشرون بسجايا كراسوس، وخدماته التي أداها للدولة، يتيح له أن يعيد إظهار صورته بعد ذلك، عندما عاصر تفاصيل الأحداث السياسية لبومبي وقيصر، وأُجبر على أن يترك السياسة، ويعود إلى الخطابة حسب اتفاقهما، ذلك المجال الذي برز فيه وتميز متفوقا ولا ريب، وها هو يستثمره في تذكير الجميع حوله بإنجازاته العظمى[٧٣].

هكذا، لقد كان لدى شيشرون مبرر جيد لكي يدعم صورته ونموذجه، بل ويرفعه إلى أعلى مستوى طمح إليه. وكان هذا النموذج بارزا على المستويين الخاص والعام، يرضى غروره وادعاءه العظمة بأساليب عديدة.

ومهما كان له من مواهب أخرى أبداها، مثل مهارته كرجل قانون ضليع، وبروزه فيلسوفا وبلاغيا ومؤرخا، فإن الخطيب داخله لم يبعد، ولم يتوار قط. وهو من خلال المحاورة يقدم لنا عرضا شاملا عميقا عمليا لمبادئ هذا الفن وخطوطه. ولذا قال الشاعر المعروف كاتولوس، (وقد كان على صلة وديه بشيشرون):

يا أحب من بقي من سلالة روموللوس
في الماضي والحاضر والمستقبل على مر السنين
أي ماركوس توليوس (شيشرون)
أعظم التحيات إليك يهديها كاتولوس
أسوأ الشعراء جميعا
أسوأ الشعراء جميعا على الإطلاق
بقدر ما أنك أعظم الخطباء جميعا

DISERTISSIME Romuli nepotum,
quot sunt quotque fuere, Marce Tulli
quotque post aliis erunt in annis
gratias tibi maximas Catullus

agit pessimus omnium poeta
tanto pessimus omnium poeta,
quanto tu optimus omnium patronus [٧٤]

المصادر:

Catullus, "poem, 49", The Latin Library, The Classics Page, (www.thelatinlibrary.com)

Cicero, "De Oratore", The Latin Library, The Classics Page, (www.thelatinlibrary.com)

Cicero, "Brutus", The Latin Library, The Classics Page, (www.thelatinlibrary.com)

المراجع:

* Benson, Thomas W. "The Cornell School of Rhetoric: Idiom and Institution", (Communication Quarterly, 2003)
* Clarke, M.L "Rhetoric at Rome: A Historical Survey", (London 1953)
* Covino, William A. &.Jolliffe, David A, " Rhetoric", (Allyn and Bacon, Boston, 1995)
* Douglas, E, " Tusculan Disputations 1", (Chicago, 1986)
* Fantham, Elaine, "The Roman World of Cicero's De Oratore" (Oxford University Press, 2004
* Fiske, George Converse &. Grant, Mary A, "Cicero's de Oratore and Horace's Ars Poetica. Contributors", (Universiy of Wisconsin.: Madison, 1969)
* Grant,M." Cicero: Murder Trials", (Harmond Sworth 1971)
* Jones,R.E. "Cicero's Accuracy of Characterization in his dialogues", (AJP 60, 1939)
* Kennedy, G."The Art of Rhetoric in the Roman World 300 B.C, - A.D, 300", (Princeton 1996)
* Leeman,A.D. & Pinkster, H." M Tullius Cicero De Oratore Libri iii Kommentar 1, (Heidelberg 1998)
* Michell, T.N."Cicero: The Ascending Years ", (New Haven,1979)
* Michell, T.N."Cicero: The Senior Statesman", (New Haven 1991)

* Mora, M.O. "The Structure of The De Oratore: A Study in Ciceronian Amplification (diss., University of North Carolina, Chapel hill, 1971)
* Petraglia, Joseph, "Reality by Design: The Rhetoric and Technology of Authenticity in Education", (Lawrence Erlbaum Associates, 1998)
* Powell, J.C.F., " Cato Maior De Senectute", (Cambridge 1991)
* Prescott, Anne Lake, "The Ambivalent Heart: (Thomas More's Merry Tales", Communication Quarterly, 2003,Vol. 45, 2003) J.C.F.Powell, " Cato Maior De Senectute", (Cambridge 1991)
* Richards, Jennifer, "Assumed Simplicity and the Critique of Nobility: Or, How Castiglione Read Cicero",(Renaissance Quarterly, Renaissance Society of America, Gale Group,2001) Vol. 54
* Rolfe, Frederick, " Cicero and His Influence", (Longmans, Green and Co., New York, 1992), * Siegel, Jerrold " Rhetoric and Philosophy in Renaissance Humanism", (Princeton University Press, Princeton, (1968)
.*Zetzel, James.E.G, "Cicero and the Scipionic Circle", (HSCP 76, 1972)
.*Zetzel, James.E.G, "Plato with Pillows: Cicero on the Uses of Greek Culture in Myth, History and Culture in Republican Rome (Exeter, Columbia University, 2003)

الهوامش

[1] تبوأت الخطابة مكانة علية في المجتمع الروماني؛ فقد كان الخطيب هو مثال العالم المثقف، الذي يحظى بتقدير الجميع، واحترامهم، ويتبوأ أرقى المناصب وأعلاها. وعُني الجهاز التعليمي في الدولة بإعداد الخطيب في جميع مراحل التعليم، وقد بين شيشرون طرق إعداد الخطيب في جميع مراحل التعليم الروماني في مقالتيه:

بروتس "Brutus"، ولها عنوان آخر هو: عن الخطباء المشاهير "De Claris Oratoribus"، والخطيب Orator . كما بينه، بعد ذلك، كوينتليانوس

Quintilianus (٣٠-١٠٠م) في مقالتــه: تعلــيم الخطابــة " Institutio Oratoria .

[2] راجع:

* Clarke, M.L "Rhetoric at Rome: A Historical Survey", (London 1953) p 44
* Fantham, Elaine, "The Roman World of Cicero's De Oratore" (Oxford University Press, 2004), p. 354
* Kennedy, G."The Art of Rhetoric in the Roman World 300 B.C, - A.D, 300", (Princeton 1996), pp 52-54
* Leeman,A.D. & Pinkster, H." M Tullius Cicero De Oratore Libri iii Kommentar 1, (Heidelberg 1998), pp71-72
* Mora, M.O. "The Structure of The De Oratore: A Study in Ciceronian Amplification (diss., University of North Carolina, Chapel hill, 1971) pp 11-12
* Prescott, Anne Lake, "The Ambivalent Heart: (Thomas More's Merry Tales", Communication Quarterly, 2003,Vol. 45, 2003) J.C.F.Powell, " Cato Maior De Senectute", (Cambridge 1991) pp 50-51

[3] وهذا ما يقول به، ويؤكده كل من:

Jones,R.E. "Cicero's Accuracy of Characterization in his dialogues", (AJP 60, 1939) pp 307-325
Zetzel, James.E.G, "Cicero and the Scipionic Circle", (HSCP 76, 1972) pp 173- 179

جدير بالذكر أن شيشرون يقول إن ثقافته وسعة تعليمه هما سبب تفوقه على غيره من الخطباء:

[4] راجع:

Fiske, George Converse &. Grant, Mary A, "Cicero's de Oratore and Horace's Ars Poetica. Contributors", (Universiy of Wisconsin.: Madison, 1969) p 19

[5] راجع

Grant,M." Cicero: Murder Trials", (Harmond Sworth 1971) p. 61

الذي أكد أن شيشرون كان على ثقة تامة من اختلاف ردود أفعال قرائه وسامعيه، وكان يأمل أن يأخذها بعضهم بجدية، فيما لا يأخذها آخرون كذلك.

قارن:

Powell, J.C.F., " Cato Maior De Senectute", (Cambridge 1991) .op. cit, p 19

[6] ولذا لابد من مراعاة سمات التوافق الوثيق بين شخصيتي شيشرون وكراسوس. ولنعلم أن كثيرا من ملامح شخصية شيشرون ومعتقداته وأرائه تُصبغ بها الشخصيات الأخرى كذلك. انظر التعليقات المفيدة لـــ:

Benson, Thomas W. "The Cornell School of Rhetoric: Idiom and Institution", (Communication Quarterly, 2003,Vol. 51, pp 86-87

[7] Cicero, "De Oratore", The Latin Library, The Classics Page, (www.thelatinlibrary.com) 1,5 ; 17-23

[8] ibid,1. 30-34

[9] ibid,1.45-57

[9] ibid,2,90-150

[10] ibid,1, 58-68

[11] ibid,1, 113-262

[12] ibid,1, 160-204

[13] ibid,1, 205-218

[14] ibid,1, 219-233

[15] ibid,1, 234-239

[16] ibid,2,28-38

[17] ibid,2,90-150

[18] هو لوتاتيوس كاتولوس O.Lutatius Catullus، الذي شغل منصب القنصل عام ١٠٢ ق م، وكان همزة الوصل بين أعضاء دائرة سكيبيو، وكان خطيبا مفوها، وراعيا للأدب والفن. راجع:

Zetzel, James.E.G, "Plato with Pillows: Cicero on the Uses of Greek Culture in Myth, History and Culture in Republican Rome (Exeter, Columbia University, 2003)
pp 119-138.

[19] De Oratore, 2,152-161
[20] Ibid, 2,185-216
[21] Ibid 2,217-290
[22] Ibid, 2,291-350
[23] Ibid, 3,17-52
[24] Ibid, 3,53-96
[25] Ibid, 3,97-207
[26] Ibid, 3,208-227

[27] راجع:

* Covino, William A. &.Jolliffe, David A, " Rhetoric", (Allyn and Bacon, Boston, 1995) pp 18-26
* Petraglia, Joseph, "Reality by Design: The Rhetoric and Technology of Authenticity in Education", (Lawrence Erlbaum Associates, 1998)), pp 41-49

[28] De Oratore, 1.5.19

[29] راجع:

Covino, William A. &.Jolliffe, David A, op. cit, p 43

[30] De Oratore, 2.152- 159

[31] راجع:

Covino, William A. &.Jolliffe, David A,op. cit, op. cit, p 44

[32] De Oratore . 3.20

[33] راجع:

Rolfe, Frederick, " Cicero and His Influence", (Longmans, Green and Co., New York, 1992), p 67

[34] De Oratore, 2.6
[35] Ibid, 2.6-21
[36] Ibid,1.172
[37] مثال: 1.118 و 1.202-203 و 1.203-204
[38] Ibid, 2.59
[39] Ibid, 2.152
[40] Ibid, 2.153
[41] Ibid, 2.156

[42] قارن: 1.243-235 بـــ 2.142-145

[43] De Oratore, 2.362
[44] Ibid, 2.363
[45] De Oratore, 1.5
[46] Ibid, 2.5
[47] Ibid, 3.1
[48] Ibid, 3.6

[49] لقد آثر شيشرون نفسه أن يتحدث في النهاية عن مناظرات قضائية جدلية، انظر:

Brutus 190. Orator 130 وقارن: Clarke., M.L, op. cit. 63

[50] 3.54, cf. 1.86-87 De Oratore,

[51] مثال: 3.70-71 و 3.81 قارن: 1.72-73 و 1.158-159

[52] Ibid, 3.85
[53] Idem
[54] Ibid, 1.80
[55] Ibid, 1.249
[56] Idem
[57] Idem

[58] قارن:

.Michell, T.N, "Cicero: The Senior Statesman", (New Haven 1991), p.23

[59] De Oratore, 3.90
[60] De Oratore, 3. 104-107
[61] Ibid, 3.108-143
[62] Ibid, 3.142
[63] Ibid, 3.143
[64] Ibid, 3.145
[65] Ibid, 3.146
[66] Ibid, 3.147

[67] راجع:

Michell, T.N, "Cicero: The Ascending Years ", (New Haven 1979),pp 64-76

[68] De Oratore, 1. 95
[69] Ibid, 3.189
[70] Ibid, 2.40

[71] قارن:

Douglas, E, " Tusculan Disputations 1", (Chicago, 1986)),pp. 9-12

[72] راجع:

Richards, Jennifer, "Assumed Simplicity and the Critique of Nobility: Or, How Castiglione Read Cicero",(Renaissance Quarterly, Renaissance Society of America, Gale Group,2001) Vol. 54,p 3

[73] راجع:

Michell, T.N op. cit, pp 181-196

[74] Catullus, poem, 49